الرُّؤيَا في رِوايَاتِ أحمد خالد توفيق

The Vision in Ahmad Khaled Tawfiq Novels

لبنى أحمد سليم أبو حليوه [1] موفق رياض نواف مقدادي [2]

Lubna Ahmad Salim Abu Hlaiwa [1] Mowafq Riyad Nawaf Migdadi [2]

10.15849/ZJJHSS.241130.10

الملخص

يدرسُ هذا البحثُ الرؤيا في رواياتِ أحمد خالد توفيق؛ للكشفِ عن أهمِّ القضايا والمضامينِ الّتي تناولتْها سرديَّاتُهُ وعلاقتِهَا بكينونةِ الإنسانِ وواقعِهِ، كونَها رؤيا تنطلقُ منْ نظرةٍ فاحصةٍ متعمِّقةٍ بتفاصيلِ المجتمعِ وتناقضاتِهِ، وقلقِ الإنسانِ وكبواتِهِ، وتأمُّلِ الذاتِ وعذاباتِهَا. وتضمَّنَ البحثُ مقدمةً وتمهيدًا وثلاثةَ مباحثَ وخاتمةً. تناولَ المبحثُ الأوَّلُ الرؤيا الاجتماعيَّةَ. وتناولَ المبحثُ الثَّاني الرُّؤيا السِّياسيَّةَ. أمَّا المبحثُ الثَّالثُ فقد تناولَ الرُّؤيا الفلسفيَّةَ. ثمَّ خاتمةٌ عرضَتْ أهمَّ نتائجِ البحثِ. وقد اعتمدَ البحثُ المنهجَ الوصفيَّ التَّحليليَّ، وقد خَلُصَ البحثُ إلى أنَّ الرُّؤيا عندَ أحمد خالد توفيق ذاتُ منابعَ واقعيَّةٍ ديستوبيَّةٍ؛ ما أظهرَ قدرتَهُ ونجاعَةَ أساليبِهِ في إنتاجِ نصوصٍ ذاتِ دلالاتٍ تجذبُ المتلقّي.

الكلمات المفتاحية: الرؤيا، أحمد خالد توفيق، الرؤيا الاجتماعية، الرؤيا السياسية، الرؤيا الفلسفية.

Abstract

This research examines the vision in the novels of Ahmed Khaled Tawfik to uncover the most important issues and themes addressed in his narratives and their relation to human existence and reality. It presents a deep, scrutinizing view of societal details and contradictions, human anxiety and setbacks, and self-contemplation and suffering. The research includes an introduction, a preface, three chapters, and a conclusion. The first chapter discusses the social vision, and the second chapter discusses the political vision, while the third chapter discusses the philosophical vision, finally, the conclusion which summarizes the key findings of the research.

The study employs a descriptive-analytical methodology and concludes that the vision in Ahmed Khaled Tawfik's works has realistic dystopian sources, demonstrating his ability and effective methods in producing texts with meanings that captivate the reader.

Keywords: The vision, Ahmed Khaled Tawfik, Social vision, Political vision, Philosophical vision.

[1] وزارة التربية والتعليم، كلية الآداب والعلوم، قسم اللغة العربية، دكتوراة الدراسات الأدبية والنقدية

[2] جامعة العلوم الإسلامية العالمية، كلية الآداب والعلوم، قسم اللغة العربية، الأدب الحديث ونقده

*للمراسلة: lubnaahmad1311@gmail.com

تاريخ استلام البحث: 2024/09/18

تاريخ قبول البحث: 2024/11/24

[1] Ministry of Education, College of Arts and Sciences, Arabic Language, Literary and Critical Studies

[2] The World Islamic Science & Education University, College of Arts and Sciences, Arabic Language, Modern literature and its criticism

*Corresponding author: lubnaahmad1311@gmail.com

Received: 18/09/2024

Accepted: 24/11/2024

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

المقدمة

ترك الروائي أحمد خالد توفيق بصمةً واضحةً في عالم الرواية العربية بتقديمه روايات ذات تنوع اجتماعي وسياسي وفلسفي ونفسي، نظرًا لثراءِ شخصياتها الواقعية، وأماكنها القاتمة، وأساليبها الفنية الكاشفة عن رؤيته للحياة والمستقبل التي تلقي بظلالها السوداء على واقع الإنسان المعاصر.

أهمية البحث

يتناول هذا البحث الموسوم بـ"**الرؤيا في روايات أحمد خالد توفيق**" تحليلًا وصفيًّا للرؤيا في تجربة توفيق الروائية، وجاءت أهمية البحث وفقًا لحاجة المكتبة العربية إلى دراسة معمقة تتعلق بالحديث عن الرؤيا في الرواية العربية كركيزة أساسية في المعمار الروائي.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى رصد كل الإيحاءات والتكثيفات التي تحملها الرؤيا في تجربة توفيق الروائية والخروج بها من دائرة التعميم ليشمل تفاصيلها كافة، كما يهدف البحث إلى توثيق جماليات الرؤيا وعلاقتها بالمعمار الروائي؛ لأنها مرتبطة بالأحداث والشخصيات والإسقاطات الاجتماعية والسياسية والفلسفية، وتخلق حالة من الوصال بين المبدع والمتلقي، وتُشرك المتلقي في صياغة وجهة نظر ورؤيا تتقاطع مع رؤيا النص الأدبي.

منهج البحث

اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي للوقوف على جماليات الرؤيا في روايات أحمد خالد توفيق، وبيان دورها في بنائه الروائي، وتقديم قراءة معمقة للرؤيا الروائية لإبراز قضاياها وموضوعاتها في إبداعه الفني.

مشكلة البحث

تكمن مشكلة البحث في الكشف عن مصادر الرؤيا التي اعتمدها توفيق في بناء رواياته، مجيبًا بذلك عن الأسئلة الآتية:

- ما العلاقة بين الرؤيا الأدبية وعالم الرواية؟
- ما المضامين الاجتماعية التي عرضتها تجربة توفيق الروائية وعلاقتها بالواقع المعيش؟
- كيف تجلّت المضامين السياسية في تجربة توفيق الروائية، وعلاقتها بالرؤيا الأدبية في تشييد معمار روائي يحملُ بُعدًا وتأثيرًا مباشرًا في حياة الإنسان؟
- ما أبعاد الاغتراب التي أسسَ توفيق من خلالها رؤيته الفلسفية؟

خطة البحث

استدعى البحث جعله في مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث، عُني التمهيد بالرؤيا وعلاقتها بعالم الروائي والرواية، وتناول المبحث الأول الموسوم بـ"**الرؤيا الاجتماعية**" النظر في القضايا الاجتماعية التي أطال توفيق النظر فيها ونقدها، وتناول المبحث الثاني الموسوم بـ"**الرؤيا السياسية**" استثمار توفيق هذه الرؤيا في بناء رواياته وتكثيف تأمله ونقده الضمني للسياسات التي تعمل لصالح فئة دون الشعب، وجاء المبحث

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

الثالث موسومًا بـ"**الرؤيا الفلسفية**" للنظر في خبايا النفس البشرية الباحثة عن ذاتها، وخاتمة تُجمل أبرز ما توصل إليه البحث.

الدراسات السابقة

تطلب هذا البحث العودة إلى مجموعة من الدراسات السابقة، وتجدر الإشارة هنا أنّني لم أقفْ على دراسة أكاديمية خُصصت للبحث في الرؤيا في روايات توفيق، إلا أنَّ هناك دراسات سابقة تناولت بعض رواياته بالدرس ذات تقاطعات جزئية مع هذا البحث منها:

1. أبو زهرة، محمود محمد السعيد (2020)، دراسة بعنوان "**ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق (1962-2018م)**"، رصدت الدراسة ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا، وعرضت أهم قضاياها من خلال نماذج تطبيقية من الرواية.
2. العنتبلي، محمد عبد الناصر محمد (2021)، دراسة بعنوان "**تجليات الديستوبيا في رواية (السنجة) لأحمد خالد توفيق "رؤية تحليلية نقدية**"، رصدت الدراسة في مبحثها الأول الموسوم بـ"المدارت الفكرية الديستوبية في الرواية" ملامح الديستوبيا في العديد من الصور في رواية السنجة، منها (موت الموت، والفساد الأخلاقي، والبعد عن تعاليم الدين، والعنف، والفساد الصحي، والفوضى).
3. المساعفة، مجدلين عبد الرحمن (2022)، دراسة بعنوان "**الديستوبيا في الرواية العربية المعاصرة (المدن الفاسدة) قراءة في رواية "في ممر الفئران**"، رصدت الدراسة بعض الأبعاد الاجتماعية والسياسية للمدينة الديستوبية في الرواية.

ينماز هذا البحث عن الدراسات السابقة بتناوله جوانب لم يتطرق إليها الباحثون بالدرس، حيث إنّ البحث تناول فلسفة توظيف المرأة في تجربة توفيق الروائية، بوصفها بِنية ذات رمزية تمتلك ثِقلاً في تجسيد الرؤيا الاجتماعية، كما نظر هذا البحث في الرؤيا السياسية عبر سلسلة من المضامين التي تُعرّي الحكومات والواقع والتاريخ، وكشف عن موقف الإنسان من ذاته ومجتمعه، وبيان علاقته بالذاكرة والموت والوجود، والبحث في أسباب الاغتراب النفسية التي تلقي بظلالها على عموم الرؤيا الفلسفية في تجربة توفيق الروائية.

التمهيد

ترتبط الرواية بوشائج وثيقة بعالم الروائي مرآتها الانعكاس، تتأسس من خلالها التصورات الفكرية والاجتماعية التي يسعى الروائي بواسطتها لتكوين رؤيا ومقاربة بين الإنسان وواقعه، تسمو على حدود الواقع المعيش بحساسية جمالية وفنية، حيث تتجلى أهمية الرؤيا في أنّها عنصر مهم يكشف عن الذات الإنسانية وواقعها، عبر متتاليات سردية تستجلب الماضي وتنتقد الحاضر وتستشرف المستقبل، فرؤيا العمل الروائي "**دلالة تسيطر على ذهن المبدع ووعيه ويتوسل بها للتعبير عن ثراء عالمه الإبداعي، مما ينبغي معه النظر إلى استخدام المبدع له بوصفه وسيلة فنية وشكلًا إبداعيًّا وعنصرًا لا غنى عنه**

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

في نسيج العمل"[1]. غير أنَّ بلورة الرؤيا الإبداعية لا تُعنى بحال من الأحوال بتقديم الحياة على شكل مفهومات حقيقية يكون المنطق منطلقها، بل هي نظرة شاملة للحياة تتسامى إلى تكوين موقف ونقل انفعال يتقولب في مضامين ذات أبعاد دلالية متعددة.

يوهم الروائي المتلقي بوجهة نظره الخاصة؛ بتقديمه مناخاً من الحالات والمقامات التي توقظ الأسرار النائمة في الأشياء، فتصبح الرواية تحوّلا وصعوداً دؤوبين في أقاليم الغيب؛ هدفها توطين الاتحاد بين الإنسان والوجود، بين الواقع والممكن، الزمني واللازمني، الشيء والخيال، تتجلى فيها الرؤيا مشوشةً العالم الظاهر للفكرة والدلالة[2]، فالرؤيا في تسربها بين جزيئات العمل الروائي تتهيأ بكونها "**معادل انفعالي، أي حالات شعورية وتصورية تنقلنا بالترائي إلى عالم نقتنع بصحته عبر التجارب التي تجري فيه من أحداث ومرئيات وأفكار**"[3]، لافتةً نظر المتلقي إلى العمق الذي يتناوله الروائي "**في عالمه الإبداعي الذي يصبح أكثر خصوبة، وأشد تعقيدًا، وأوسع أفقًا، وأرحب فضاء**"[4] ما ينقل المتلقي من حدود الاستمتاع إلى آفاق التأويل والتبني.

المبحث الأول: المضامين الاجتماعية

تنبع رؤيا توفيق من ديستوبيا[5] تستشرف مستقبلاً سوداوياً ينذر بالنهاية، فهو إنْ كان ينطلق من واقعٍ تجربة اجتماعيّة معيشة تشي إلى حدّ ما بالتوازن في وقتنا الحاضر، إلاَّ أنَه يرسم عالماً جديداً عماده الخراب وسيطرة الظلام، راصداً في رواياته الانحطاط الذي آلت إليه المجتمعات الحديثة، ومن خلال اطلاعنا على روايات توفيق نجدهُ يتناول واقع الإنسان المعاصر والمستقبلي بشكل تفصيلي عبر مضامين اجتماعية تمسُّ حياته.

1. الفقر

يشكل العالم الديستوبي الواقع الأساس الذي يروي له توفيق وينطلق منه مستبصراً الغد الذي يلوح أفقهُ قريباً، يمارس عملاً استشرافياً يدقُّ ناقوس الخطر، فالمدينة الفاسدة هي أساس مجتمعات رواياته على اختلاف الانطلاقة في الطرح من رواية إلى أخرى، جاعلاً (اليوتوبيا)[6] فردوساً مفقوداً يبحث عنه الجميع، في ذات الوقت لا ينفك عن حشد مظاهر الفساد في مدنه، فهو يقدم اتهاماً صريحاً لليوتوبيات المزعومة

(1) هويدي، صالح، **بنية الرؤيا ووظيفنها في القصة القصيرة العراقية**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، (1993)، ص17.

(2) انظر: أدونيس، علي أحمد سعيد، **مقدمة للشعر العربي**، ط3، دار العودة، بيروت، لبنان، (1979م)، ص139.

(3) صبحي، محي الدين، **الرؤيا في شعر البياتي**، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، (1988م)، ص21.

(4) الشوابكة، سمية سليمان، الرؤية السياسية والتشكيل الفني في رواية السجن السياسي "الأسوار أنموذجاً"، **مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 39، العدد1، (2012م)، ص37.

(5) شوشة، فاروق، **معجم مصطلحات الأدب**، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، (2007م)، ج1، ص7، الديستوبيا Dystopia: أدب المدينة الفاسدة، تعني الكلمة في أصلها اليوناني (المكان الخبيث).

(6) انظر: حسيبة، مصطفى، **المعجم الفلسفي**، ط1، دار أسامة للنشر، عمان، الأردن، (2009م)، ص305، اليوتوبيا: تعني ليس في أي مكان، وهو التعبير الذي يُستخدم أدبياً لوصف مدينة مثالية وخيالية غير قابلة للتحقيق.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

بزرع بذور الفتنة والقسمة، وجعل الإنسان في دوامة الآنا والآخر، التفريق على أساس بنى علوية أو فوقية وأخرى تحتية[1].

يصف توفيق الفقر من خلال معيشة سكانه، عالماً يخلو من أبسط وسائل المعيشة، يُوصف بالعشوائية، قلة الموارد، ينخر جسد أهله الجوع "**لم يعد في هذا العالم إلا الفقر وإلا الوجوه الشاحبة التي تطل منها عيون جاحظة جوعى متوحشة**"[2]، فالفقر قضية الصراع الناتجة عن القهر والتهميش الاجتماعي، فتكرسّت الطبقية التي قسمت الشعب إلى شعبين، (يوتوبيا) فردوس الأغنياء و(عالم الأغيار) للفقر والفقراء، وعالم النور للقومندان وحاشيته من رجالات الدولة والمال، و(ممر الفئران) للمسحوقين العميان "**هناك بعض الأثرياء يملكون تلك النظارات الخاصة التي تتيح لهم نعمة البصر، لكنهم ينكرون ذلك طيلة الوقت.. وقد أتاحت لهم هذه الميزة سبقاً هائلاً على الفقراء..**"[3]، كشفت ثيمة الفقر في المقطعين السرديين السابقين عن غياب العدل الاجتماعي في تقسيم الموارد واستئثار فئة دون غيرها بها، ما قسّم المجتمع إلى عالمين، الغالبية العظمى فيه جوعى عميان وشاحبون فقراء.

2. **التلوث**

تناولت تجربة توفيق الروائية التلوث كونه النتاج الملموس للنشاطات البشرية، فهو ظاهرة يحسُها ويتأثر بها الجميع، فالتلوث يشمل بيئة النشاط البشري حتى أصبح تلوثاً بصرياً يألفه النّاس في مشاهداتهم اليومية، ففي رواية (**السنجة**) يُجيل (الشرقاوي) بصره في بيئة (دحديرة الشناوي)[4] التي يعمُّ فيها التلوث بشكل كبير نظراً لاكتظاظ النّاس فيها "**يمكنك إذا مضيت هناك صباحاً أنْ ترى الجدار المهدَّم المثقوب الذي تسنده أكوام القمامة الموضوعة بإسترتيجية بارعة، والتي تتعالى يوماً بعد يوم، إلى أنْ يقرر الصبية أنْ يحرقوا بعضها ليصنعوا ثغرة. يمكنك أنْ ترى البيوت العشوائية الضيقة المبنية من طابق واحد، فهي أقرب إلى عشش الإيواء، أو هي كذلك**"[5].

تلامس ديستوبيا الرائحة حاسة الشم عند المتلقي، مرسلة له رسالةً مفادها أنَّ التلوث نتيجة حتمية لاختفاء النور، تفوح رائحته في كل أرجاء (ممر الفئران) كما يخبر (الشرقاوي): "**هناك رائحة الأنفاس والعرق.. عرق الإبط بلمسته الهرمونية المميزة.. عطور رخيصة رطوبة.. الرائحة الحكومية التي هي مزيج من الأثاث القديم والعرق والبنايات الخربة وأكوام الملفات والفئران ورائحة دورة المياه لم يتم إصلاحها منذ قرون**"[6]، فالتلوث انعكس على حياة الإنسان وهذا ما حاول توفيق تسليط الضوء عليه،

(1) ينظر: القصير، أحمد، **منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية**، ط3، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، (2012م)، ص76-86، البنى الفوقية في الفكر الماركسي : تعني المجتمع السياسي، والبنى التحتية : المجتمع المدني، والعلاقة بينهما تقوم على أساس اقتصادي نفعي.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ط6، دار ميريت، القاهرة، مصر، (2013م)، ص51.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، دار الكرمة، القاهرة، مصر، (2016)، ص220.

(4) دحديرة الشناوي: مكان متخيل غير حقيقي، حي شعبي في القاهرة، تدور فيه أحداث رواية السنجة.

(5) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ط 5، دار بلومزبري، الدوحة، قطر، (2012م)، ص9-10.

(6) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، ص72.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

كاشفاً عن قبح واقع المستقبل الذي سيرزح تحت وطأته إنسان الغد، الذي سيجد نفسه عالقاً في محيط لا يعرفه، تخنقه رائحته وبيئته.

3. **العنف**

يُعرف العنف بأنّه "**سلوك مشوب بالقسوة والعدوان والقهر والإكراه، بعيد عن التحضر والتمدن تستثمر فيه الدوافع والطاقات العدوانية استثماراً بدائياً كالضرب وتدمير الممتلكات، ويمكن أن يكون فردياً أو جماعياً**"[(1)]، وقد اشتغلت ثيمة العنف في تجربة توفيق الروائية بتجلٍ كبير حتى شملت كل مفاصل حياة الناس، فكان من أبرز صورها عنف الذات مع الذات عبر الإيذاء الجسدي للخلاص من ثقل الحياة والضغوط النفسية وصراعات الشخصية الداخلية، ففي رواية **(مثل إيكارس)** يُقدم (محمود السمنودي) على تهشيم يديه وقطع لسانه إخفاءً لما يعرفه عن الحكومات التي تلهث خلفه للكشف عمّا يخفيه من أسرار ومعلومات، فيصفه طبيبه النفسي بعد عودته من الولايات المتحدة هارباً "**أدركت هذه المرة أنَّ عظام يديه مهشمة.. يضمدها بالشاش بطريقة تذكرك بالمجذومين الذين تراهم في أفلام السينما، كما أدركت أنَّ هناك شيئاً على غير ما يرام في فمه.. لم أتبين لسانه –الذي لم يعد هنالك– إلا مؤخراً..**"[(2)]، يفصح المقطع السردي السابق عن حالة العنف التي اعترت (السمنودي) ضد جسده، الذي أثقلت كاهله نبوءات صاحبه، النبوءات التي كلّفته يديه حتى لا يكتب شيئاً يعرفه، ولسانه حتى لا يُنبأ عمّا يراه.

يظهر العنف –على الجانب الآخر– في العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع، فيتجلى بعنف الذات مع الآخر فيما يمكننا أنْ نُطلق عليه الجريمة العشوائية، فالجريمة العشوائية لا يخطط لها بل تظهر فجأة للخلاص من شخص يهدد مشروعاً ما، كما في رواية **(شآبيب)**[(3)] حين أقدم الأستاذ الجامعي وقائد العرب في شآبيب (مكرم مخائيل) على قتل أحد السكان الأصليين المصاب بمرض نادر؛ خلاصاً من هذا المرض الذي قد يتفشى بين العرب، ولإخافة باقي السكان؛ منعاً لهم من تخريب مشروع الدولة الجديدة "**بوم !!! كانت هذه هي الطلقة الوحيدة التي نسفت رأس المريض، فهمد وكفَّ عن الضحك.. في نفس اللحظة تقريباً انفجرت المرأتان في صراخ هستيري كأنّهما كلبتان عاويتان**"[(4)]، يطغى العنف الجسدي ضد الذات والآخر على المقطعين السرديين السابقين، بل على أغلب التجربة الروائية التوفيقية، ويعود ذلك إلى الرؤيا السوداء التي تستمد قتامتها من قاع المجتمع، مجتمع العشوائيات والفقر والجهل والجريمة، مجتمعٌ مُهمِشٌ للآخر ولحياته الفكرية والنفسية والجسدية.

4. **فوضى الجنس**

ظهرت الحياة الجنسية في تجربة توفيق مثالاً للفوضى والرعونة، مظهرةً أقصى أنواع الاندفاع وراء الشهوة والاضطراب المجتمعي، الذي تحلل من كل الروابط الدينية والأخلاقية التي تضبط إيقاع حياته،

(1) بحري، منى يونس، **قطيشات**، نازك عبد الحليم، العنف الأسري، ط1، دار صفاء، عمان، الأردن، (2011م)، ص38.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكارس**، ط 4 ، دار الشروق، القاهرة، مصر، (2017م)، ص279.

(3) ابن منظور، محمد بن مكرم (711هـ)، **لسان العرب**، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ياسر سليمان أبو شادي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، (2009م)، ج7، باب الشين، ص3، شآبيب: جمع شؤبوب، وهو الدفعة من المطر والشدة من كل شيء، شآبيب المطر: القطرات الأولى من المطر.

(4) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، (2018م)، ص266–267.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

تشكلت فوضى الجنس بصيغ متعددة وتمثلات مختلفة في تجربة توفيق الروائية، كونها إشكالية ذات خصوصية تتصل بسلوك الأفراد وقيمهم، فالصحفية (روان) في رواية **(مثل إيكاروس)** تقع في فخ البحث عن الزوج خوفاً من العنوسة والفقر والوحدة، ما اضطرها للزواج العرفي من (شريف) الثري زميل العمل "**لعلكِ أردتِ أنْ تنخدعي.. أنت أيضاً تملكين شهوة عجولاً قاسية وقد حان وقت إطفائها.. واليوم أنت تتذكرين كلمات محمود فتبكين.. والصغير الذي يتكون في أحشائك ولا تعرفين ما تعملين به، وأمك التي ستفقد حياتها وقلبها لو عرفت حرفاً مما فعلت، وشريف الذي ذاب تماماً من لوحة عالمك فلم يعد له وجود..**"[1]، في حين كان حضور خيانة الأخوية دافعاً لـ(عباس الدلجموني) في إقامة علاقة مع (صابحة) زوجة صديقه (صلاح) "**لم يكونا يتكلمان.. الرغبة والتوتر أذهلاهما عن الكلام.. هذه لذة محرمة.. لذة محرمة جداً، لذا كان توترهما عظيماً وشهوتهما أعظم.. ومن الأرض السوداء تنبت الفاكهة الأشهى**"[2].

لم تخض رؤيا توفيق في تفاصيل الجسد بإسهاب بل اكتفى بوصف الحدود العامة لثيمة الجنس؛ تأكيداً على طغيانها وسيطرتها على حياة وأذهان الأفراد في مجتمعات المستقبل على اختلاف طبقاتها، في دلالة على انهيار النظم الأخلاقية والاجتماعية والدينية التي كانت تضبط علاقة الفرد بغيره، وتحرم العلاقات خارج إطار الزواج.

5. حضور المرأة في المشهد الروائي عند توفيق

منح توفيق المرأة العربية عامة والمصرية خاصةً حضوراً طاغياً في تجربته الروائية، فلم تعد المرأة سقط متاع أو ملكية فردية مقفلة عليها مغاليق الأبواب، بل تمثلت حالة خلق تبعث الحدث الروائي، ترمز لمضامينه وقضاياه، تصعد بالزمن وتسترجعه، تزخرف اللغة وترطبها تبعاً للطبقة الفكرية والاجتماعية التي تنحدر منها، وظّفها توفيق لتؤدي أدواراً اجتماعية ليست بالغريبة عليها؛ لتطرح القضايا وتنقدها، وتعبر عن ألمها وعجزها، وقوتها وإصرارها، ووضوح رأيها.

تجلّت المرأة الثائرة كعنصر فعّال في إذكاء روح الثورة ضد الظلام، رافعةً رايات الحق والعدل، رافضة حفيف الأجساد لعبودية جديدة، فهذه (نجوان) ترفض الظلم والقتل في إحدى أغنيات ثورتها

"**عندما أغيب وراء المغيب**

فلا تقولوا إنّني خضعت

لا تقولوا إنّني تهللت للظالمين أو طلبت رأفة غير مستحقة

إنّكم إذا تقولون هذا

تقتلونني مرتين

تقتلون جسدي ثم تحرقون ذكراي"[3]

أخذت المرأة المتعلمة فرصتها في الظهور الروائي عند توفيق، فلا تكاد تخلو رواية من أنموذج للمرأة المتعلمة الواعية صاحبة القرار، فكانت (سلوى عمران) المحامية الشابة النشطة تعمل في المحكمة

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكاروس** ص133.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص195-196.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، ص317.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

"**تتواثب هنا وهناك، وهي تطالع الرول وتقف خارج قاعات الجلسة تنتظر دورها، وتهمس لشهود القضية ناصحة بما يجب أنْ يقولوه..**"(1)، على النقيض تماماً تحضر المرأة المومس (سمية) التي امتهنت البغاء في عالم الأغيار، لا قيمة لجسدها سوى أنّه منقذها من الموت جوعاً "**دنوت منها فاعتدلت في وقفتها وضحكت عن أسنان صفر لم تغسل منذ أعوام.. فقلت لها بلهجة الخبير: كم؟؟، بصوت مبحوح ممزق للأعصاب يذكرك باحتكاك (الفوم) الذي يغلف الأجهزة الكهربية: أنا آخذ خمسين.. الليلة كلها بمائتي جنيه..**"(2).

يطرق توفيق عالم المرأة بجرأةٍ أكثر، فيعرض للمرأة المستلبة الإرادة الضعيفة، والمعنفة جسدياً ولفظياً، فكانت (عفاف) الأنثى الأكثر اضطهاداً في رواياته، تتناسل آلامها بشكل مرعب، تستعيد شريط حياتها، طفلة تحب الكتاكيت الصغيرة(3)، ففتاة يانعة مقبلة على الحياة تعاون أمها في شؤون المنزل ما عرضها في سنٍ مبكرةٍ للتحرش في سوق الخضار، (عفاف) الصغيرة التي عوقبت لأنّها أنثى، لارتباط بلوغها برقعة السيجة الملوثة بالدم وأثر الشبشب على كل بقعة من جسدها على يد والدها، الذي أوسعها شتماً وضرباً لأنّ الشهود على أنوثتها كثر "**يا بنت الكلب! يقولها وهو يحاصرها في ركن الصالة يا بنت الكلب! يقولها وهو ينهال عليها ضرباً بالشبشب هذه المرة كان يضرب الوجه يا بنت الكلب! يقولها وهو يحاصرها في ركن آخر كانت تعوي من الألم، وعزز هذا الانطباع الذي كان لديها.. هي أفسدت شيئاً**"(4).

وجدت (عفاف) اليافعة نفسها فجأة في مواجهة لا تقل عنفاً وألماً من ضرب والدها، تجربة اجتماعية جسدية نفسية تعيشها كل فتاة، حيث أخبرتها (أم فوقية) بأنَّ "**هناك شيء صغير يجب أنْ تمر به كل فتاة لتصير فتاة حقاً**"(5)، (عفاف) المرأة العاشقة التي فقدت حبيبها في ثورة يناير، (عفاف) الشابة العاملة الفقيرة التي تعرضت لاغتصاب جماعي على يد (حماصة) وعصابته، (عفاف) فتاة القطار التي شغلت الجميع في دحديرة الشناوي لإقدامها على الانتحار بين قضبان محطة القطار، (عفاف) التي يُلخص لنا توفيق مأساتها بكلمة واحدة هي (الانتهاك)، حينما تكون الأنثى مستباحة دون النظر إلى شخصيتها وإنسانيتها وحريتها، ونجده لا يفصلها عن مجتمعها بل يؤكد على قيمة وجودها، بالرغم من قسوة الحياة عليها في أغلب الأحيان، إلا أنَها تطرح نفسها قضية متجذرة في كينونة المجتمع.

المبحث الثاني: المضامين السياسية

تعدّ المضامين السياسية من أهم الرؤى التي أخذت وزناً كبيراً في روايات توفيق؛ كونها ترتكز على ثيمات متعددة يتهيأ كل منها لحمل قضية ذات جدل كبير، تمتع توفيق في طرحها والخوض بتفاصيلها بجراءة عظيمة مناقشاً إرهاصاتها ونتائجها ووسائل تحقيقها، فالمضامين ذات البعد السياسي تتطلب روائياً

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكاروس**، ص45.
(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص56.
(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص 38
(4) توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص 82.
(5) توفيق، أحمد خالد، رواية السنجة، ص 246.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

يملك رؤيا مستنيرة تتلاءم مع طموحات المجتمع وتطلعاته، يقدّم موازاة رمزية للقضايا التي تُقلق وجدانه عبر مغامرة سردية ذات خطوط فكرية واضحة.

1. الاستبداد السياسي في ممر الفئران

يتهيأ الاستبداد صفة "**للحكومة المطلقة العنان فعلاً أو حكماً، التي تتصرف في شؤون الرعية كما تشاء بلا خشية حساب ولا عقاب محقَّقين**"[(1)]، فالاستبداد داء معطل لحياة الشعوب؛ لما يجرهُ عليهم من الظلم والقمع وغياب العدل، قوة تضرب بعرض الحائط كل القوانين والتشريعات التي وُجدت من أجل رخاء الإنسان وحريته.

تظهر في رواية (في ممر الفئران) أقسى وأبشع صورة للاستبداد السياسي، التي استغلها (القومندان) بعد سبات الشمس الطويل نتيجة ارتطام نيزك كبير حدود الكوكب الأرضي، حيث أطلق (القومندان) جيوش أفكاره معتمداً مبدأ (ما أريكم إلاّ ما أرى)، مرسلاً خطاباً لرعاياه (في ممر الفئران) يعلن فيه حكمه أرجاء الأرض، وأنّه القلب الذي يرعاهم ويوفر لهم الحياة الكريمة مختاراً لهم الظلام عقيدة ونظاماً "**القومندان اختار لكم الظلام عقيدتكم هي الظلام، الظلام مقدس الظلام طاهر. لهذا يجب أنْ تعيشوا فيه أبداً، النور دنس يلوث الظلام لهذا يحرم عليكم البحث عنه.. لا أحد يشعل ناراً حتى لو كان هذا ممكناً، لا أحد يبحث عنها، إنَّ النار حق أصيل للقومندان وليس من حق سواه**"[(2)] هذه النظرة الاستبدادية صنعت واقعاً ظلامياً يعيش فئرانه تحت ظلال القهر والعبودية.

أدرك (الشرقاوي) الزائر الجديد لممر الفئران الاستبداد السياسي الذي يقوده (القومندان)، ويكتشف فجأة أنه ليس حراً، ضعيفاً واهناً، هشاً خاضعاً لنظام قمعي قادر على سحقه متى يشاء، فيصف عملية إعدام الهرطيق (كمال ثروت) الذي جرب استيلاد الضوء بخلايا بيولوجية، فلم تُجدِ كل محاولات التوسل وطلب الرحمة، فرجال الشرطة الليلية يقررون عقاباً يزلزل صوته آذان الناس ويحفر في ذاكرتهم، فالإعدام يبدأ بنباح الكلاب المنذر بتمزيق من أمامها "**سمع كذلك صوت جنازير، فأدرك أنَّ هناك من يمسك بعدة كلاب، ثم سمع صوت التمزيق والصراخ.. العويل.. التوسل.. النباح من السهل أنْ تفترض أنَّ المتهم مقيد أو حبيس قفص، بينما تهاجمه هذه الوحوش التي لا تراها هل هي قادرة على رؤيته أم تعتمد على الرائحة؟ صوت تمزيق اللحم.. لم يسمع صوت تمزيق اللحم قط من قبل، ولم يتخيل أنّه عالٍ لهذا الحد**"[(3)]، وكأن مناخاً للعدالة بروحها السادية يعم ممر الفئران، ولعلك هنا تغير قناعاتك وتتساءل لربما كانت الحقيقة هي الظلام؟!

2. الربيع العربي في رواية السنجة

يشكل الربيع العربي وثوراته منعطفاً مهماً في وجدان المجتمع العربي المعاصر، حيث حفلت رواية (السنجة) بمظاهر ثورة الربيع العربي في مصر، فكان الشباب عصب التغيير السياسي، ينادي بالحرية والعدالة الاجتماعية ومحاسبة الفاسدين، فكانت الشرارة "**من شباب الطبقة الوسطى الذين يجيدون استعمال**

(1) الكواكبي، عبد الرحمن **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ط3، دار النفائس، بيروت، لبنان، (2006م)، ص 38.
(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، ص182-183.
(3) توفيق، أحمد خالد، رواية في ممر الفئران، ص249.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

الكمبيوتر، ويعلقون صورة جيفارا ويحبون أغاني محمد منير وألحان عمر خيرت"[1]، فالشباب المسحوقة أحلامه اختار ميدان التحرير[2] كياناً يوثق ثورته على أرض الواقع، فكان المصريون "**مارد عملاق يحتشد.. يحتشد قطعة قطعة وشلواً شلواً في ميدان التحرير، وفي كل يوم كانت صورته تبدو أكثر وضوحاً واكتمالاً، وما كان حشداً من شباب غاضب تقتحمهم العين صار هياجاً شعبياً مخيفاً، فثورة تتزلزل لها الأرض**"[3].

يوضح الشرقاوي بطل رواية (السنجة) الأسباب التي أدّت إلى اندلاع الثورة، فالدولة انحرفت تماماً عن أداء وظيفتها، وأغمضت عينيها عن الفقر والجوع، فانفصلت عن واقع النّاس وحياتهم ما ساهم في انتشار المخدرات وذيوع الجهل وارتكاب جرائم القتل والاغتصاب، ذلك الشعب الحائر المقموع الذي لم يعِ نظام مبارك[4] حقيقة أمره ولم يحسن تبين اللحظة؛ لثقته العمياء بعصا الأمن المركزي المطلقة، لكنَّ بذور الثورة كانت موجودة في مفاصل الحياة المصرية "**في نوال التي تشتهي نصف دجاجة.. في حسين الذي يحاول بيع الهراء.. في عفاف التي احتفظت بجسدها لأنّه سلاحها الوحيد.. في إبراهيم الذي عاش حياتين في آن.. في عباس الذي يحمل على عاتقه كيف الدحديرة كلها.. في جمال الذي.. في عصام نفسه الذي فشل في كل تجارب حياته، واليوم يحاول أنْ يصبَّ فشله في زجاجات يبيعها، ويحاول أنْ يعتبر نفسه من أبناء الثورة مع أنّه من جدودها وأسلافها!**"[5]

تتسرب رهانات الواقع المصري في مفاصل الرواية، متجسدة برؤيا سياسية تنهض بحركة الثورة ومشهدياتها، تفتح أبصار المتلقي على وجهة نظرٍ تروي الأحداث من زاوية الشعب، فالربيع العربي في رواية (السنجة) لم يكن تسجيلاً بؤريّاً لحدثٍ بعينه، بل كان بانورامياً يرصد المشهد برمته، يرصف أجزاءه دمجاً للصورة الكاملة التي مهدت للثورة؛ ليزهر الربيع من جديد.

3. نظام الغيتو والأغيار في رواية يوتوبيا

يُعرف الغيتو (ghetto) بأنّه "**حي اليهود أو الأقليات في مدينة**"[6]، في حين يرى الفاروقي أنها مشتقة من الإيطالية وتعني"**مسكب المدافع إشارة إلى الحي المجاور لهذا المسكب الذي كان يسكنه اليهود، وقيل أيضاً أنّها مشتقة من كلمة (Judaca) أي مكان سكن اليهود، أو من الكلمة العبرية (جت) الواردة في التلمود بمعنى الانفصال**"[7]. استغل توفيق نظام الغيتو الذي عُرف بأنّه نظام فصل عنصري تجاه اليهود في أوروبا، وسكبه في قالب روائي يحمل رؤيا سياسية مفادها انفصال فئة من

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص203.

(2) ميدان التحرير: هو أكبر ميادين مدينة القاهرة في مصر، سُمّي في بداية إنشائه باسم ميدان الإسماعيلية، نسبة للخديوي إسماعيل، ثم تغيّر الاسم إلى "ميدان التحرير"؛ نسبة إلى التحرر من الاستعمار في ثورة 1919.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص206.

(4) حسني مبارك (1928–2020) سياسي وضابط مصري شغل منصب الرئيس الرابع لجمهورية مصر العربية من (1981) خلفاً لمحمد أنور السادات، وحتى (2011) بتنحيه تحت ضغوط شعبية.

(5) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص225.

(6) البعلبكي، منير، رمزي، **المورد الحديث**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (2008م)، ص492.

(7) الفاروقي، إسماعيل راجي، **الملل المعاصرة في الدين اليهودي**، ط2، دار التضامن، القاهرة، مصر، (1988م)، ص23.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

المجتمع عن بقية فئاته الأخرى، في استشراف لمجتمعات المستقبل التي تعمل كل طائفة إيديولوجية أو طبقة اجتماعية فيها إلى فصل نفسها في غيتو خاص فيها، حيث تدور رواية (يوتوبيا) حول هذه الفكرة، حين انفصل سكان (يوتوبيا) من الأغنياء وأصحاب رؤوس الأموال في مستعمرة أطلقوا عليها اسم (يوتوبيا) في الساحل الشمالي، انعزلوا فيها طلباً للأمان يمارسون حياتهم بكل رفاهية وحرية مطلقة بعيداً عن الفقر "**اضطرت هذه الطبقات إلى أنْ تعزل نفسها طلباً للأمان في تلك المستعمرات على الساحل الشمالي، وقد استعملوا رجال المارينز لأنّهم يضمنون ولاءهم**"[1].

في حين تجسدت رؤيا الأغيار باعتبار كل من هو خارج محيط مستعمرة (اليوتوبيا) معادياً لها، حيث استجلب توفيق مصطلح الأغيار (Gentiles) من تعريب الكلمة العبرية (جوييم Goyyim) وهي صيغة تعني الشعب أو القوم، وبعد مخاض ليس بالعسير إيديولوجياً في منظومة الفكر اليهودي، حملت معاني ذات إيحاءات الذم والقدح تتهم الآخر (الغريب) بالدونية والاستباحة، حتى استحالت العلاقة مع الآخر واتسمت بالعدوانية تصل حد تشريع قتله؛ كون أرواح الأغيار صدرت من المحارات الشيطانية التي تسعى إلى إفساد المجتمع وتلويث قداسته ونظامه[2]. تجلت هذه الرؤيا في رواية (يوتوبيا) عندما اختار توفيق مصطلح الأغيار للإشارة إلى الطبقة الدنيا من البشر في نظر سكان (يوتوبيا)، بشر لهم عالمهم وأرضهم الخاصة كما جاء على لسان (علاء) عندما وصل (أرض الأغيار) "**الآن نحن ندخل أرض الأغيار... العالم الآخر الذي تركناه منذ زمن، يوم توارينا خلف أسوار يوتوبيا**"[3]، كما يصفهم بمحدودية ذكائهم وضعف إراداتهم، وبهذا انحدروا إلى درجة أقل من مرتبة الحيوان حتى أصبحوا رياضة للتسلية يقضي شباب (يوتوبيا) وقتاً ممتعاً في تعذيبهم، كما فعل (راسم) صديق (علاء) ذات رحلة صيد بشرية "**اختطف واحداً من هؤلاء العاطلين وعاد به إلى يوتوبيا، وقضى ورفاقه أياماً ممتعة في ملاحقة هذا المخطوف بالسيارات، ثم قتلوه واحتفظ راسم بيده المبتورة بعدما قام بتحنيطها.. كل واحد من أصدقائي قام يوماً ما بهذه الرياضة: رياضة صيد الأغيار، وعاد منها بتذكار ثمين يريه لأمثالي...**"[4].

بناء على ما سبق تتهيأ رؤيا توفيق السياسية في رواية يوتوبيا من إيديولوجيا معيشة لها تاريخها الإجرامي، وهذه الرؤيا لم تأتِ من فراغ، بل هي محاولة تسليط الضوء على ما تحصده البشرية من جراء إمعان هذه الأفكار في التغلغل في الفكر المعاصر ما قد يجلب الويلات للشعوب بتعميق انفصال عرى المجتمعات، وتحويلها إلى طبقات ينظر بعضها البعض بالاحتقار والدونية واللاآدمية، حيث يرسخ هذا الفكر السياسي الفردية واستباحة الآخر وانتهاك حرمته، وحرمانه أبسط مقومات الحياة، وإدخاله في عبودية جديدة تسلبه روحه.

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص107.

(2) انظر: المسيري، عبد الوهاب محمد، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، (1999م)، ج5، ص240.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص49.

(4) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص37.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

4. أرض الميعاد[1] في رواية شآبيب

تدور رؤيا رواية (شآبيب) حول فكرة جمع عرب الشتات في وطن قومي جديد، يضمن لهم الحياة الرغيدة والعدالة الاجتماعية والديمقراطية المفقودة في أوطانهم الأصلية، فتأسيس دولة (شآبيب) لها قواها الدافعة المتمثلة في بؤس العرب وتشرذمهم في القارات المختلفة، ومعاناتهم من العنصرية في مجتمعاتهم الجديدة التي عاملتهم على أنَهم يهود هذا العصر يجب خنقهم داخل غيتوات خاصة بهم، فهذا (مكرم ميخائيل) العقل المدبر لفكرة الوطن القومي (أرض الميعاد) يقيم في الولايات المتحدة الأمريكية، وأمينة المعلمة التونسية تقيم وعائلتها في النرويج، والشاب الليبي سليم يقيم في مونروفيا، ومحمد عدنان في استراليا، فالرواية لم تكن شطحات فكرية متناثرة في عقل الروائي، بل هي رؤيا وإسقاط سياسي يتناول أسطورة الوطن القومي التي اختلقها اليهود لاغتصاب فلسطين من أهلها.

يشترك (مكرم) الشخصية المحورية في رواية (شآبيب) مع (هرتزل) بذات العقلية والطموح الوجودي، فكلاهما أقدم على تأليف كتاب يُروّج إلى فكرة جمع قومه في بقعة أرض تُمنح لهم من قوى عالمية عظمى، فـ(مكرم) اختلق الأدلة التاريخية والدينية والأثرية المزعومة التي تثبت وجود العرب في بابوا غينيا الجديدة (شآبيب) في كتابه (العربي التائه)، وهي ذات المعادلة التي أوجدها (هرتزل) في كتابه (الدولة اليهودية)[2].

يحاول مكرم (هرتزل الجديد) بروحه المغامرة انتزاع اعتراف أمريكي بدولة (شآبيب) الشابة و إقامتها في جزيرة بابوا غينيا الجديدة، وبعد محاولات الحشد السياسي للفكرة مع صديقه نائب الرئيس الأمريكي (جوناثان إيرهات)، تم الإعلان عن قيام دولة (شآبيب) وطناً قومياً للعرب؛ عبر خطاب تلفزيوني رنان متعاطف مع معاناة العرب في الشتات، تلاه (جوناثان) قائلاً: "**إن الولايات المتحدة تنظر بعين العطف إلى اتخاذ إحدى جزر"الأوقيانوسية" القريبة من بابوا غينيا الجديدة موطناً للعرب يبدءون فيه من جديد بعيداً عن الاضطهاد والتمييز العرقي..**"[3]، نلحظ في المقطع السابق من خطاب (جوناثان) الإسقاط السياسي المتمثل بخطاب بلفور[4] وزير خارجية بريطانيا الذي منح فلسطين وطناً قومياً لليهود، فكلٍ من (جوناثان وبلفور) منحا ما لا يملكانه لمن لا يستحق.

ومن أجل تحقيق حلم الدولة الموعودة قامت الحكومات الغربية بتمويل ميزانية الدولة الجديدة، والتكفل بهجرة العرب من كل مكان إلى المستعمرات الجديدة في بابوا غينيا الجديدة، فـ(مكرم) يؤكد على ضرورة تولي "**البحرية الأمريكية نقل كل هؤلاء المهاجرين لأنَ معظمهم لا يملك مالاً يغطي ربع هذه الرحلة**"[5]، وبالفعل وجدت (أمينة) نفسها مع ابنتها تراقبان البحر و"**الأمواج المتلاطمة فوق قطعة من الأسطول السادس الأمريكي حيث وقف حشد من العرب من أكثر من بقعة في أوروبا.. ستكون رحلة**

---

(1) ينظر: مهدي، عبير سهام، **أرض الميعاد في الفكر الإسرائيلي المعاصر**، ط1، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (2012م)، ص14، أرض الميعاد: وهي المقابل لكلمة (إرتس يسرائيل) أي فلسطين.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص149–163.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص173.

(4) آرثر جيمس بلفور (1848–1930) سياسي بريطاني تولى رئاسة الوزارة في بريطانيا، عمل أيضاً وزيراً للخارجية، اشتهر بإعطاء وعد بلفور الذي نص على دعم بريطانيا لإنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين.

(5) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص143.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

شاقة وطويلة جداً إلى أنْ يبلغوا نصف الكرة الجنوبي بين أستراليا وإندونيسيا بابوا غينيا الجديدة.. أرض الميعاد."[1]، يعكس المقطعان السرديان صورة الهجرة اليهودية إلى فلسطين تحملهم السفن الأوروبية، وهي صور ومشاهد تحتفظ بها الذاكرة الجمعية العربية، وقد استغلها توفيق في تجسيد صورة العربي المشرد تحمله الأساطيل الأمريكية لأرض ميعاده وميلاده الجديد.

يمعن توفيق في سرديته المبنية على أسطورة أرض الميعاد المختلقة في (شآبيب)، فيتحدث عن الاستعمار الإحلالي الذي يتربعُ قمة الهرم الاستعماري، وخطورته تكمن بالاستيلاء على الأساس المادي الذي يستند إليه المجتمع وهو (الأرض) وإحلال المستوطنين الجدد محل السكان الأصليين بعد طردهم من ديارهم بإمعان التطهير العرقي واعتماد المجازر التي تنشر الذعر بين السكان الأصليين[2]، وهذا ما طبقه (سليم) الشاب المتحمس الغاضب في جزيرة بابوا غينيا الجديدة فعلياً، الذراع العسكري الذي يعتمد عليه القائد (مكرم ميخائيل) في تمهيد الطريق لقيام دولته، فاستخدمَ القوة المفرطة في قتل السكان الأصليين للجزيرة وإبادتهم، فهم بنظره لا قيمة لهم "**نحن نحتاج لهذه الجزيرة بالكامل.. لا بدّ من إبادة هؤلاء.. إنّهم أقرب للقردة ولن يخسر أحد شيئاً بفقدهم حتى هم**"[3]، فانقضّ (سليم) مع رجاله على سكان إحدى القبائل وهم في غفلةٍ من أمرهم، يؤدون طقوس عيد الخنازير الذي تحوَل إلى مذبحة سوف يتذكرها أهل القبيلة طويلاً، فانطلقت الطلقات في كل صوب، وغمرت الدماء جذوع الشجر، فطارت الرقاب وبقرت البطون، وهربت الأمهات بأطفالهن خوفاً وهلعاً، فخلت الأرض من سكانها؛ تمهيداً لقيام مستعمرة جديدة.[4]

يُلحظ على رواية (شآبيب) أنّها بُنيت على فكرة أرض الميعاد التي بدأت وعداً وتحققت قسراً، فتوفيق في هذه الرؤيا يحاكم الواقع والتاريخ والسرديات الصهيونية الكاذبة.

5. الإسلاموية في رواية مثل إيكاروس

تُعرف الإسلاموية (الإسلام السياسي) بإحدى صورها بأنّها "**تيار سياسي حركي يندفع بشراهة نحو السلطة والحكم والإيثار والنفوذ والمال، يحاول إيجاد نوع من الترابط بين المقدس والمدنس، ليتمكن من تمهيد الطريق لكي يحقق المصالح الذاتية عن طريق الدين**"[5]

يطرح توفيق فكر الإسلاموية من خلال شخصية الصيدلاني (مصطفى أبو حسن)، الذي تعرّض للاضطهاد على يد أتباع (الإسلاميين) في الكلية، عندما دُمر معرضه الفني على يد مجموعة من الطالبات المنقبات، في إجابة متأخرة أيقظته من صدمته أنَّ الرسم في حد ذاته خطيئة، خاصة أنَ الجامعة لا تبتغي مع الإسلاميين مشاكل تعيق العملية التعليمية، كونهم في تلك الفترة قوة "**كان السادات[6] يحتاج لهم بشدة**

(1) توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص181.

(2) انظر: المسيري، عبد الوهاب محمد **الصهيونية والحضارة الغربية**، دار دون، القاهرة، مصر، (2018م)، ص35.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص247.

(4) توفيق، أحمد خالد، **المصدر نفسه**، ص249-250.

(5) كصّاي، همام حسين، **ظاهرة الإسلام السياسي من الدين إلى العولمة**، ط1، دار الخليج للنشر، عمان، الأردن، (2021م)، ص22.

(6) محمد أنور السادات (1918-1981) سياسي وضابط عسكري مصري، شغل منصب الرئيس الثالث لجمهورية مصر العربية من (1970) حتى اغتياله عام (1981).

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

ليضرب اليساريين والشيوعيين، لذا كانوا سادة الجامعة.. والحقيقة هي أنّ أمن الجامعة كان يحميهم في ذلك الوقت"[1].

يكشف مصطفى في الرواية عن الحالة الزئبقية التي يتمتع بها الإسلاميون، حيث لاحت بارقة نور في الأفق حين شاركوا في الاستفتاء الكبير، إذ حققوا فوزاً ساحقاً أوصلهم لرئاسة الجمهورية، فكانوا خياراً مقبولاً شعبياً، فهم كائنات زئبقية لها القدرة على التشكل والتكيف مع أي توجه سياسي؛ بسبب قدرتهم التنظيمية المذهلة ووسائلهم الدعائية الخارقة، خاصة خطباء المساجد الذين يغزون القرى والنجوع والإذاعات وشاشات التلفزة معتمدين على الورقة الرابحة دوماً وهي أنّ الشعب المصري متدين بطبعه[2].

أما الصدمة الكبرى التي أزالت الغمامة عن عيني (مصطفى) بعد ثلاثين عاماً من الكفاح مع الإسلاميين، كانت تغيّر معاملة (عثمان الفقي) زميله في الحركة الإسلامية، الذي حرر (محضر تبرؤ) يؤكد فيه عدم انضمامه للجماعة الإسلامية وأنّه لم يعتنق فكرها يوماً في حياته، ليتساءل (مصطفى) في حيرة واندهاش "**ألم يكن عثمان صادقاً؟ كل هذا البكاء والصوت الدامع في صلاة التهجد؟ كل هذا البحث النشط عن أخ جديد ينضم له.. لم يكن من أجل الدين إذن وإنّما من أجل سلطة ونفوذ، ولما تبلج النهار وتكشفت الحقائق، كان أول من تخلى عن الحلم القديم وبدأ بمغازلة مصدر القوة الجديد..**"[3]. يُقدّم توفيق نقداً واضحاً وصريحاً لكل من اتخذ الدين وسيلة للوصول لغاياته، خاصة الجماعات الإسلامية التي أرهقت حياة الناس بالتعقيد والتطرف الفكري والتعصب الديني، الذي لا طائل له سوى طبع المشهد العام في مصر بالفوضى والكراهية والبوليسية.

المبحث الثالث: المضامين الفلسفية

تتخذ هذه الرؤيا من الإنسان محورها الرئيس في تجربة توفيق الروائية، الذي تتأزم علاقته مع ذاته ومحيطه كلما عانى وواجه صعوبات الحياة، فيتبنى فلسفة تنعكس على حياته وتصرفاته وقناعاته، ونقصد بالفلسفة هنا ليس ما عُرف عنها من علم، بل مبتغانا تهيأ بالبحث في فلسفة الذات، ووجهة نظر الإنسان وموقفه من محيطه وعلاقاته وما يتبناه من أفكار ومعتقدات يرسم من خلالها مسار حياته.

1. الاغتراب

يعدّ الاغتراب جزءاً جوهرياً في منظومة الرؤيا الفلسفية التي تناولها توفيق في تجربته الروائية، مبرزاً مقولته عبر خليط فلسفي يبحث في خبايا الذات والنفس، فالاغتراب "**انسلاخٌ عن المجتمع والعزلة والانعزال عن التلاؤم والإخفاق في التكيف مع الأوضاع السائدة في المجتمع، واللامبالاة وعدم الشعور بالانتماء، بل وأيضاً انعدام الشعور بمغزى الحياة** "[4]، فالاغتراب ليس حالة مزاجية أو اجتماعية أو سياسية عابرة، بل هو المظهر النفسي الملموس للإنسان المكبوت المشوه المدفوع بدوافع لا يعي كنهها،

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكاروس**، ص64.

(2) ينظر توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص73.

(3) توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص77.

(4) خليفة، عبد اللطيف محمد، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب**، دار غريب، القاهرة، مصر، (2003م)، ص21.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

إنسان موزّع في صلب داخله، مطارد بالشعور بالذنب، متنكر لرغباته الطبيعية، مصاب بالتوهم، عالق بمشاعر التوجس والخوف، تقضمه أسنان القلق والحيرة، فيلجأ إلى مخادعة ذاته في سبيل التخفيف من عبء اغترابه وتعاسته[1].

تسير الشخصيات الروائية عند توفيق ضمن إطار الإنسان التائه الذي تجاوزت حدود اغترابه مألوفه المعتاد، فنراها تعيد إحياء سؤال كيركغارد[2] القائل "**يغرس الواحد منا اصبعه في التربة فيعرف الأرض التي ينتمي إليها من الرائحة التي يشمّها، وأغرس أنا اصبعي في الوجود فينمُّ عبيره عن اللاشيء، فأين أنا وكيف جئت إلى هُنا، وما هذا الشيء المسمى بالعالم، كيف وصلت إليه؟ لماذا لم أسأل ولماذا لم أوهل لأتطبع بطرقه وعاداته؟ قذفت إلى جوعه وكأني أشتريتُ من خاطف ملعون أو تاجر أرواح.. كيف أصبحت مهتماً به؟ هل هو أمر طوعي؟ وإذا كنت مرغماً على تمثيل دور فيه، فأين هو المخرج؟ أحتاج أن أراه!**"[3].

يؤكد توفيق على أنَّ الإنسان يعيش في دوامة هائلة من الأحداث التي تعبره دون أنْ تعيره اهتماماً، فيجد نفسه ظلاً لحياة يعرفها ولا يعرفها، يعيقه سؤال الوجود والغاية، يقف مراراً لينظر خلفه مستذكراً نفسه التي عفّت واندثرت، بندول ساعته يعيد الكرّة ويجبره على التحديق في ذاته ووجوده ومعنى الحياة وعبثيتها في مشهد سريالي يخبره أنّه في مأزق ما لا يعرف كنهه.

أبعاد الاغتراب: أسس ميلفن سيمان (Melvin Seeman)[4] لخمسة أبعاد للاغتراب، وقد لمستُ تأثر توفيق بها في تجربته الروائية، ومن ضمنها:

- **العجز (Powerlessness)**

ويعني "**عدم قدرة الإنسان على التحكم في تصرفاته أو الشعور بعدم قدرته على التأثير على المجتمع الذي يعيش فيه، ومن ثم فلا إرادة له ولا دور في ما يجري من أحداث أو يتخذ من قرارات مصيرية بشأنه**"[5]، وقد اتكأ توفيق على ثيمة العجز في رسم أغلب شخصياته، ففي رواية (في ممر الفئران) نجد الناس متخبطين في الظلام، يعيشون وفق إرادة غيرهم، فلا أدوار يتقنونها سوى عيش يوميات الظلام؛ لأنّ الظلام عقيدة (القومندان) التي فرضها عليهم، فوجدوا أنفسهم غرباء في محيطهم، متكيفين رغم أنوفهم، يدركون أنّ أي فكرة يقدمون عليها لا طائل منها "**وحتى لو رفضنا هذا فما جدوى الرفض؟**

(1) ينظر: بركات، حليم، **الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع**، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، (2006م)، ص49.

(2) سورين كيركغور (1813–1855) يكتب اسمه أيضاً : (كيركيغارد أو كيركغارد أو كيركجارد أو كيركيجارد) هو فيلسوف دنماركي، لاهوتي، شاعر، ناقد اجتماعي، ومؤلف ديني، يُعتبر على نطاق واسع أول فيلسوف وجودي.

(3) البدري، سامي، **عتبة السلم الرملي (الفلسفة المفقودة)**، ط1، مؤسسة الرحاب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (2017م)، ص15–16.

(4) ميلفن سيمان (1918–2020) عالم نفسي اجتماعي أمريكي، عمل أستاذًا فخريًا لعلم الاجتماع في جامعة كاليفورنيا، عُرف بأبحاثه حول العزلة الاجتماعية، من أهم مؤلفاته في معنى الغربة (On The Meaning of Alienation).

(5) حماد، أيمن، **الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة (1952–2000م)**، ط1، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، (2021م)، ص21.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

ما الذي بوسعنا أنْ نفعله؟ الأمر أقرب لسيطرة كونية لا راد لها إنه القدر"[1]، فالمقطع السردي السابق يعلن صراحة عن عجز (نجوان) وجماعة النورانيين رفض ما هم به، حيث لا درو لهم في حلول الظلام السرمدي وسيطرته على حياتهم، الظلام الذي حولهم إلى عبيد يتم الفتك بهم إذا فكروا بالتمرد على إرادة (القومندان).

يعبّر (جابر) في رواية (يوتوبيا) عن عجزه كما غيره من سكان عالم الأغيار في تغيير حياته للأفضل، فهو يرزح تحت وطأة حياة لا ينتمي لها، سرقت أحلامه وأمنياته، جعلته فقيراً جائعاً يصحو كل يوم ليدرك "**أنّ الحياة مستحيلة، وأنّك عاجز عن الظفر بقوت غذ أو مأواه.. متى حدث هذا؟.. تسأل نفسك فلا تظفر بإجابة..**"[2]، يتهيأ العجز كبعدٍ اغترابي في عدم قدرة الشخصيات في المقاطع السردية السابقة بالتأثير في مجتمعاتها، حيث تجد نفسها غريبة عنها، يتملكها غياب القدرة وضعف الإرادة –إن وجدت– على تغيير واقعها والتأثير في محيطها، فاستحال العجز عثة تنخر في أرواحهم، وتحطم عزائم أفكارهم ما زاد من اغترابهم وسلبية دورهم.

- **اللامعنى (Meaninglessness)**

ويقصد به "**توقع الفرد أنّه لن يستطيع التنبؤ بدرجة عالية من الكفاءة بالنتائج المستقبلية للسلوك، كما يقول (سيمان)، فالفرد يغترب عندما لا يكون واضحاً لديه ما يجب عليه أنْ يؤمن به أو يثق فيه؛ ولذلك يرى الإنسان المغترب أنّ الحياة لا معنى لها، لأنّها تسير وفق منطق غير مفهوم وغير معقول، ومن ثم يعيش حياة التفاهة واللامبالاة**"[3].

تتساءل الشخصيات في روايات توفيق عن معنى وجودها وقيمته، تعاني تيهاً لا حدود له، ما جدوى الحياة إنْ كانت تسير كما تشاء، ففي رواية (السنجة) نجد (عفاف) تسير هائمة على وجهها لا تعرف وجهة تعيد لها ذاتها، طفولتها ومشاغبتها، تبحث عمن يفسّر لها ما حدث وما سيحدث، هل كانت تستحق كل ما حدث لها؟ هل كانت الحياة منصفة لتختبرها بهذه القسوة؟ "**تمشي في الطرقات حائرة.. لا تعرف إلى أين هي ذاهبة ولا متى تعود.. فقط تمشي وتسترجع المشاهد القاسية التي عاشتها، وفي بعض الأوقات تجلس على الرصيف كأنّها أصيبت بالبلاهة فجأة.. تحدّق في الفراغ**"[4].

يخبرنا (محمد عدنان) في رواية (شآبيب) عن فقدانه معنى الحياة "**بعد خروجه من السجن كانت روحه مفعمة بالجروح، إنّها التجربة التي لا تصير حياتك بعدها مثلما كانت قبلها أبداً.. إنّها الخبرة التي لا تتمنى أبداً أنْ تخبرها.. إنَه الاغتصاب النفسي الكامل الذي يترك روحك ممزقة ملقاة جوار جدار.. إنَه العجز التام والوهن**"[5]. فقد (محمد عدنان) ذاته في أزمة الحياة بتجربته السجن، ما أدخله في اكتئاب عميق، فصار قليل الكلام منعزلاً، تؤهله الظروف بجديتها إلى فقدان ما تبقى له من عقل، فهو تائه في

(1) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، ص201.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص64.

(3) الجبوري، يحيى، **الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)**، ط1، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، (2008م)، ص18.

(4) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص241.

(5) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص114.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

الوجود تتملكه مشاعر اللاأهمية واللامعنى، يجتر الاغتصاب النفسي روحه فيمزقها ويلقيها خلفه؛ ليجد (محمد) نفسه غريباً ومغترباً عن ذاته وروحه بوهن وعجز واضحين نتيجة ضياع نكهة الوجود ومعناه.

- **الأنوميا (Formlessness)**

ويطلق عليها أيضاً اللامعيارية أو فقدان النموذج، وتعني"**افتقار المجتمع للمعايير الاجتماعية التي تضبط سلوك الأفراد، ما يؤدي إلى نشوء الفردية المتطرفة وما يرافقها من مواقف انتهازية نفعية**"[1] ففي رواية (يوتوبيا) يكثر صيد البشر طلباً للتسلية وأخذ تذكار بشري "**الطائرة تدخل إلى الخرائب، ثم يتدلى منها سلم من الحبال.. يتسلق الفتية الثلاثة السلم وهم يصرخون صرخات وحشية، ثمَّ ترتفع الطائرة.. أولاد الكلب حسبوا أنّهم يمثلون فيلماً أمريكياً عن حرب فيتنام.. الفتية صاروا داخل الطائرة وهم ينظرون من أعلى إلى الجموع الغاضبة.. أحدهم لوح بشيء دامٍ في يده وأطلق سبة بذيئة..**"[2]، فالأنوميا في المقطع السردي السابق جلية، حيث كل الوسائل مشروعة لفتيان (يوتوبيا) لتحقيق رغباتهم وإرضاء طموحهم ولو كان على حساب حياة الآخرين، الأغيار الذين يعدونهم وسيلة تسلية يمكنهم الحصول عليها متى شاؤوا.

تتمثل الأنوميا في رواية (في ممر الفئران) بشكل كثيف، خاصة عندما احتكر (القومندان) لنفسه وأتباعه النور دون البشر، فشرّع كل الوسائل للعيش في نعمة الضياء، كقعلته أعلى جيال الهيمالايا، ووسائل إنتاج الأكسجين والرؤية والطيران، فعزل نفسه مقتنعاً أنَّ "**هذا البهاء لنا وحدنا.. كان من حق الجميع فصار من حق الصفوة.. إنّنا سادة العالم بلا مبالغة..**"[3]، فالمقطع السابق يكشف سعي (القومندان) لتلبية رغباته مستغلاً كافة الوسائل للحصول على أهدافه بصرف النظر عن مدى مشروعيتها.

- **الانعزال (Isolation)**

يتمثل بشعور الإنسان بـ"**عدم الاندماج الفكري والحضاري مع المجتمع نتيجة لإعطاء الفرد قيماً متدنية لأهداف ومعتقدات ذات قيم عالية**"[4]، حيث تجلّى هذا البعد من الاغتراب في رواية (مثل إيكاروس) عندما قرر (محمود السمنودي) الابتعاد عن الناس والانعزال في بيته "**لقد كانت حياته جافة تماماً ولا بدَّ أنّه قضى ساعات قاسية وحده بلا صديق، في دار ضيقة حارة.. لا بدّ أنّه كان يحلم بلا توقف، ولا شك أنَّ شخصيته كانت تزداد تفرداً وغرابة**"[5]

نجد السمنودي في مقطع سردي آخر يعمق من انعزاله وغربته عن مجتمعه، فيذوب بين الطلبة في كلية الحقوق التي دخلها "**لأنّها الكلية الوحيدة التي استطاع اللحاق بها، وهناك استطاع لحسن الحظ أنْ يذوب وسط حشد الدفعة الرهيب حتى فقد أي شيء يميزه.. انزلق كبصقة على زجاج الحياة اليومية فلم**

(1) انظر: النوري، قيس، **الاغتراب اصطلاحاً ومفهوماً وواقعاً**، مجلة عالم الفكر، وزارة الإعلام، الكويت، الأول من شهر إبريل، المجلد 10، العدد 1، (1979م)، ص16.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ص103.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، ص272.

(4) العبد الله، يحيى، **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**، ط1، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (2005م)، ص23.

(5) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكاروس**، ص16.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

يشعر به أحد"[1]، عانى (محمود السمنودي) أقسى أنواع الاغتراب باعتزاله الحياة والابتعاد عن الناس؛ حتى فقد الارتباط الروحي معهم بالرغم من عيشه في وسطهم، ما جعله يُقدم أكثر من مرّة على الانتحار وتشويه جسده؛ نتيجة لكآبته وعدم تكيفه مع مجتمعه.

- **الاغتراب الذاتي (self-estrangement)**

يتجسد الاغتراب الذاتي في "**عدم قدرة الفرد على إيجاد الأنشطة المكافأة ذاتياً، وشعوره بأنَّ ذاته الخاصة وقدراته تصير شيئاً ما ومغترباً**"[2].

عالج (توفيق) في تجربته الروائية انعدام الصلة بين الشخصية وذاتها، حيث توجّه الشخصية لذاتها نقداً لاذعاً بالتقصير والتخاذل، فـ(عصام الشرقاوي) الروائي المغمور يلوم نفسه "**أنت عاجز عن استيلاد أفكار.. أنت ناضب عنين.. أنت تتقمص حالة الأديب المنهمك برواية عظيمة.. تتصرف مثله.. تبدو مثله.. تتألم مثله.. لكن الحقيقة هي أنّك لن تلد أبداً.. لم يعد لديك رحم.. والأدهى هو أنّك لا تقبل هذه الحقيقة**"[3]، وفي مقطع سردي آخر من رواية (شآبيب) يعلن (محمد عدنان) تقزمه أمام الكون وحيرته أمام الحياة التي جعلت منه سجيناً يختنق في داخله "**هل كانت طموحات الماضي هباء؟ وكل أيام السجن؟ كأنّك فعلت هذا كله على سبيل التسلية وحتى لا تعبث في أصابع قدميك.. نوع من كسر الكسل يوم الظلة لا مفر.. ألعن شيء في العالم هو الكفاح المضني الذي تكتشف أنّه هباء**"[4]، ترثي الشخصيات في المقاطع السردية السابقة نفسها، وكيف أصبحت كبئر ناضب لا جدوى من رمى الدلاء فيها، يعتمل الخواء النفسي ويعيث خراباً في دواخلها، يرفع الرايات الحمر أمام أعينها موقظاً أسئلة الاغتراب في ذاتها، مشككاً في قيمتها ما دام وجودها لم يحقق مبتغاها وطموحاتها، فعندما يعي الفرد ذلك "**يغترب روحياً عن الواقع الذي يعيش فيه؛ لأنه يشعر بزيفه، وبالتالي يصبح عاجزاً عن الانسجام والتكيف مع المجتمع، ولا يشعر بالانتماء، ولا يشعر بمغزى الحياة أيضاً**"[5].

2. الموت وجه الوجود

تتخذ ثيمة الموت في تجربة توفيق الروائية بعداً فلسفياً يعلن عن وجوده صراحةً، فالموت هو المعادل الموضوعي للوجود، أي أنَّ الشخصيات تتجه نحو الموت دافعة الحياة للاعتراف بها، وكأنَّ توفيق يُعلّق على تشييء الإنسان منتقداً طريقة التعامل معه، غير أنَّ الموت ببعده الحقيقي تجلّى بشكله الاعتيادي بالرغم من حمولته المثقلة بالهموم الذاتية للشخصية، فيتهيأ تراجيدياً شهوانياً في اخنتاق (جمال الفقي)، ومصيراً محتوماً بصبغة إيمانية في موت (مصطفى المزين) بنوبة سكر، وموتاً حالماً بطيئاً يترصد (إبراهيم أبو غصيبة) حاملاً خلاياه السرطانية، وموتاً عنصرياً في حادثة كراهية ضد العرب راحت ضحيتها

(1) توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص19.

(2) ميلود، ولد الصديق، **الاغتراب السياسي في الوسط الطلابي دراسة استطلاعية لرأي المجتمع الطلابي في العملية السياسية على ضوء التحولات السياسية في العالم العربي**، ط1، مركز الكتاب العربي، الجزائر، (2015م)، ص62.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص17.

(4) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص101.

(5) معالي، حنين، البحث عن الذات والصراع النفسي عند شخصيات رواية (ميرا) لقاسم توفيق وأثرهما في البعد الفني، **مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية**، المجلد 48، العدد 4، الملحق 1، (2021م)، ص78.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

(كريمة)... إلخ، لكنَّ رؤيا توفيق للموت تحمل مشاهد أخرى تُعنى بموت الذات، وموت الضمير، وموت المعرفة.

منح توفيق شخصياته وعياً متدفقاً متصلاً بالنهاية، منسجماً مع فكرة أنّنا أحياء والفناء يدب فينا، وأنّ الموت ذروة اكتمال الحياة "**فالموت ليس مجرد نهاية بسيطة للحياة، وليس مجرد حادثة في نهاية القصة؛ إنّما هو يتغلغل كثيراً داخل القصة نفسها**"[(1)]، فالموت في رواية (شآبيب) ظاهرة شعورية ومؤشر على الانكسار ونفاد كل الحيل التي يحاول (محمد عدنان) إقناع نفسه بأنّه على قيد الحياة "**نظر للسماء وأخذ شهيقاً عميقاً.. مهما كان الكون بلا نهاية فهو سجن.. وجودنا المادي يجعل الكون سجناً.. لعل الأرواح هي الشيء الوحيد الذي لا يشعر بقيود الكون.. ملايين الأسئلة تكبلنا..**"[(2)]، فموت محمد عدنان ليس بالموت البيولوجي في المقطع السردي السابق، بل موت يتغلغل في ثنايا الروح والذات، يخبره أنَّ النهاية قادمة لا محالة.

تتساوى المعرفة في رواية (مثل إيكاروس) مع الموت، فهي كرة النار التي تحرق من يمسك بها، فالمعرفة "**ليست مفتاح السعادة في كل الأحيان كما يعتقد الفلاسفة، بل هي كرة نار تحرق من يمسك بها.. ثمة أسرار من الخير لها أنْ تبقى مغطاة مسربلة في إزارها.. إنّك إنْ كشفت عن عورتها أصابك الهلع أو الاشمئزاز.. دعني أخبرك أنَّ العالم غير مهيأ للحقيقة الكاملة.. غير متأهب لك..**"[(3)]، يخبرنا المقطع السردي السابق أنّ المعرفة موت بطيء، تقضم صاحبها ندماً واختناقاً، فالمعرفة أدخلت (محمود السمنودي) إلى عالمٍ موازٍ فوقف مشدوهاً مبهوتاً مما يغوص فيه من معرفة، فحكمت على حياته بموت فاتر لا يملك له نهاية حتمية.

يتجلى موت الضمير في رواية (السنجة) في العديد من مشاهدات الحياة، فغش بائعة الدجاج لـ(حسين عبد الرحمن) أنموذج لموت الضمير، حيث أقدمت على بيعه دجاجة محقونة بالماء، بائعة تتستر خلف برواز الطيبة و سماحة الوجه، تعلّق آيات قرآنية وتشغل القرآن جلباً للزبائن، ثارت ثائرة (حسين) عندما اكتشف خداعها، استحال شيطاناً موتاً جحيماً يريد الانتقام، عندما وصل إلى موضعها غاضباً أخرسته بحزمٍ وقوة، فكان صراع الإرادات، لكنّ ضميرها الميت فاز وانتصر "**نظرت إليه في حزم ووضعت إصبعها على شفتها السفلى: ولا كلمة! فتح فمه ليصرخ لكنّها أخرسته من جديد: ولا كلمة! اخرس ولا كلمة!**"[(4)]، تصرَّ (العجوز) على موقفها وكأنَها تقول له: دعني أخدع غيرك، لا تملأ الدنيا صراخاً فكلنا نُخدع، قرأت وجهه فصفعته بقولها: "**أرى في عينيك أنّهم خدعوك في المحافظة وخدعوك في عملك وخدعوك في كل مكان تواجدت فيه.. الحياة نفسها خدعة كبرى.. الدولة تخدعك طيلة الوقت.. أنت لا**

(1) مبروك، أمل، **فلسفة الموت**، دار التنوير، بيروت، لبنان، (2011م)، ص43-44.
(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص85.
(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكاروس**، ص282.
(4) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص74.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

تنال خدمات ولا رعاية صحية وليس من حقك المسكن ولا الزواج ولا العلاج.. وبعد هذا كله تملأ الدنيا صراخاً من أجل دجاجة بها بعض الماء؟"[1]

يشتعل الموت في روايات توفيق برؤيا لا تكتب النهاية حقيقة، فيذوب ويتشظى في مشاهد الحياة منعكساً بمثابة جسر يربط الإنسان بذاته وبالآخر، فالشخصيات في تجربة توفيق الروائية لا تعرف نفسها إلا ميتة، وتدرك أنّ الموت لا يحمل رقاداً يحفّه السلام، بل نجدها تكافح وعيها الحاد بالفناء بدفن نفسها بشقاء الحياة، لذلك انقسمت الشخصيات وفق علاقتها بالموت، إحداها تعيه وتتصالح معه فيصير حدثاً عادياً مُنتظراً، وأخرى وقعت في فخ الحياة فتشتت وعاشت موتها النفسي الذي فرض حضوره وأنشأ صروح وجوده في كل مسافات الأمان التي يبحث عنها الإنسان.

3. **وجع الذاكرة**

تنوء الذاكرة بحمل ثقيل في تجربة توفيق الروائية، ذلك أنَّ الشخصيات تلجأ إليها في لحظات حنينها وانكسارها، فهذا (سليم) بعد انهيار دولة (شآبيب) تأخذه التأملات وتعود به الذكريات إلى فشله الأول "**الحين حين تأمل وشرود.. الإبحار في عباب الذكريات ولحظات محاسبة الذات القاسية.. هناك على الساحل الاستوائي الحار، يمكنك أنْ تجد جذع شجرة عتيقاً دب فيه العفن وغزته الطحالب ليس بخير مقعدٍ يمكن أنْ تجده، لكنه يصلح على حال، هو ليس في حال تسمح له بأنْ يفترش الرمال الساخنة، ثم إنَّ الجلوس يتيح له ما كان يشتهيه من غوص في لجة الذكريات.. لسبب ما بدا له أنَّ استعادة الذكريات في وضع واقف أمر مهين بعض الشيء، ابتسامة شقت طريقها بعسر شديد عبر جلد وجهه المدبوغ، حتى إنّه أوشك على التمزق، تذكر قصة قديمة لـ (دستويفسكي) جعلته كريمة يقرؤها**"[2].

يخبرنا المقطع السردي السابق أنَّ وجعاً واحداً للذكرى لا يكفي، بل هو وجع يمتد على أكبر قدر من العمر، نقطة سوداء تذكرك دائماً بفشلك الأول، فذاكرة (سليم) سلسلة من أوجاع منبتها الأول مقتل زوجته كريمة، الذكرى التي تأبى الاندثار بل تبحر به إلى أقسى محطات محاسبة الذات، تتهيأ قاضياً تحاكمهُ على ضعفه، على تضييعه زوجته وطفليه، على اجتراره العنف إلى عقر داره، فالذاكرة عادلة متيقظة لا تموت برحيل من كان بصحبتها يوماً ما.

أما ذاكرة الجسد في رواية (السنجة) ظلت وسمة عار تحملها (عفاف) حتى آخر أيام حياتها، الذاكرة المليئة بالأسى والتحرش والختان والاشتهاء والاغتصاب، ذاكرة تحمل عبء صاحبتها، الذاكرة التي استحالت لغزاً يحتاج إلى فك شيفراته، "**هل ظلت تحمل هذه الذكرى القاسية حتى لحظاتها الأخيرة ؟ كأنّها أرادت أنْ تقول إنَّ القطار سيكون سرنجتها الخاصة المليئة بالهواء**"[3]، فالمقطع السردي السابق يعجُّ بوجع الذاكرة التي حملتها عفاف معها إلى مثواها الأخير، الألم الذي آثرت أنْ تدفنه معها؛ حتى لا تشقى عائلتها بذكراه، فعاشت (عفاف) غريبةً عن ذاتها وأهلها وماتت منتحرة مع كل ذكرى آلمتها.

(1) توفيق، أحمد خالد، المصدر نفسه، ص74.

(2) توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ص10.

(3) توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ص141.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

نلحظ أنّ رؤيا توفيق تتشكل عبر خطّ طويل متصل بمصير الإنسان، مؤكداً أنَّ إنسان العصر الحديث يعيش عصراً تُمارس فيه عبودية جديدة قد تكون اجتماعية أو سياسية أو فلسفية، منطلقاً في تناولها من محاورة الذات للذات، والذات والآخر، وفهم معنى الوجود عبر سلسلة من التجارب والسرديات التي تحاول الكشف عن الوجه الحقيقي للحياة.

الخاتمة

كشف البحث الموسوم بـ"**الرؤيا في روايات أحمد خالد توفيق**" عن تعدد الرؤى التي تناولها توفيق في تجربته الروائية، وقد خَلُصَ هذا البحث عن نتائج أهمها:

- عكست الرؤيا الاجتماعية في روايات توفيق الوضع القائم في المجتمع العربي المستقبلي، حيث عبّرت عن قضاياه ومشاكله بشكل غير مباشر لا يخلو من تشويق وإمتاع.
- ترسم الرؤيا السياسية في روايات توفيق قلقًا يعبر عنه بموجات الاستبداد واستحضار نماذج جديدة للعبودية المبطنة التي تمارس سلطتها بعنف متواتر.
- تثير الرؤيا الفلسفية في تجربة توفيق الروائية التساؤل بمصير إنسان المستقبل مع ذاته والآخر.
- عبّر توفيق عن مواقف وأفكار وعواطف شخصياته بلغة عنيفة شرسة تارة، وأخرى متوترة قلقة تبعا لاختلاف مستوياتهم الاجتماعية والنفسية والثقافية.
- فتح توفيق باب المشاركة للمتلقي في إبداعه الفني عبر مسرحة الرؤيا بأحداث ذات وتيرة متوازنة تسمح بتكوين وجهة نظر يعلن من خلالها المتلقي موقفه من الأفكار والشخصيات الروائية.

التوصيات

- توصي الباحثة بتناول تجربة أحمد خالد توفيق الروائية وفق مناهج نقدية مختلفة خاصة المنهج النفسي.
- توصي الباحثة بدراسة الإنسان كذات لها كيانها في تجربة توفيق الروائية، كونها تمتلك تنوعا فكريا وفلسفيا وطبائعيا يلامس طبقات المجتمع المختلفة.

المصادر والمراجع

أولا: المصادر

- توفيق، أحمد خالد، **رواية السنجة**، ط5، دار بلومزبري، الدوحة، قطر، (2012م).
- توفيق، أحمد خالد، **رواية يوتوبيا**، ط6، دار ميريت، القاهرة، مصر، (2013م).
- توفيق، أحمد خالد، **رواية في ممر الفئران**، دار الكرمة، القاهرة، مصر، (2016م).
- توفيق، أحمد خالد، **رواية مثل إيكارس**، ط4، دار الشروق، القاهرة، مصر، (2017م).
- توفيق، أحمد خالد، **رواية شآبيب**، ط1، دار الشروق، القاهرة، مصر، (2018م).

ثانيا: الكتب

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

- أدونيس، علي أحمد سعيد، **مقدمة للشعر العربي**، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، (1979م).
- بحري، منى يونس، قطيشات، نازك عبد الحليم، **العنف الأسري**، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، (2011م).
- البدري، سامي، **عتبة السلم الرملي (الفلسفة المفقودة)**، مؤسسة الرحاب للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، (2017م).
- بركات، حليم، **الاغتراب في الثقافة العربية متاهات الإنسان بين الحلم والواقع**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط1، (2006م).
- البعلبكي، منير، رمزي، **المورد الحديث**، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، (2008م).
- الجبوري، يحيى، **الحنين والغربة في الشعر العربي (الحنين إلى الأوطان)**، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، (2008م).
- حسيبة، مصطفى، **المعجم الفلسفي**، دار أسامة، عمان، الأردن، ط1، (2009م).
- حماد، أيمن، **الاغتراب في الرواية العربية المعاصرة (1952–2000م)**، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، الأردن، ط1، (2021م).
- خليفة، عبد اللطيف محمد، **دراسات في سيكولوجية الاغتراب**، دار غريب، القاهرة، مصر، (2003م).
- شوشة، فاروق، **معجم مصطلحات الأدب**، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة، مصر، (2007م).
- صبحي، محي الدين، **الرؤيا في شعر البياتي**، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، ط1، (1988م).
- العبد الله، يحيى، **الاغتراب دراسة تحليلية لشخصيات الطاهر بن جلّون الروائية**، المؤسسة العربية للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، (2005م).
- الفاروقي، إسماعيل راجي، **الملل المعاصرة في الدين اليهودي**، دار التضامن، القاهرة، مصر، ط2، (1988م).
- القصير، أحمد، **منهجية علم الاجتماع بين الماركسية والوظيفية والبنيوية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، ط3، (2012م).
- كصّاي، همام حسين، **ظاهرة الإسلام السياسي من الدين إلى العولمة**، دار الخليج للنشر، عمان، الأردن، ط1، (2021م).
- الكواكبي، عبد الرحمن، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط3، (2006م).
- مبروك، أمل، **فلسفة الموت**، دار التنوير، بيروت، لبنان، (2011م).
- المسيري، عبد الوهاب محمد، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، (1999م).
- المسيري، عبد الوهاب محمد، **الصهيونية والحضارة الغربية**، دار دون، القاهرة، مصر، (2018م).

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024

- ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، تحقيق: مجدي فتحي السيد، ياسر سليمان أبو شادي، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، (2009م).
- مهدي، عبير سهام، **أرض الميعاد في الفكر الإسرائيلي المعاصر**، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، (2012م).
- ميلود، ولد الصديق، **الاغتراب السياسي في الوسط الطلابي دراسة استطلاعية لرأي المجتمع الطلابي في العملية السياسية على ضوء التحولات السياسية في العالم العربي**، مركز الكتاب العربي، الجزائر، ط1، (2015م).
- هويدي، صالح، **بنية الرؤيا ووظيفنها في القصة القصيرة العراقية**، وزارة الثقافة والإعلام، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، العراق، (1993م).

ثالثا: المجلات والمواقع الإلكترونية

- الشوابكة، سمية سليمان، الرؤية السياسية والتشكيل الفني في رواية السجن السياسي الأسوار أنموذجا، **مجلة دراسات**، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 39، العدد1، (2012م).
- معالي، حنين، البحث عن الذات والصراع النفسي عند شخصيات رواية (ميرا) لقاسم توفيق وأثرهما في البعد الفني، **مجلة دراسات**، العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد 48، العدد 4، الملحق1، (2021م).
- النوري، قيس، مقال (الاغتراب اصطلاحا ومفهوما وواقعا)، **مجلة عالم الفكر**، المجلد 10، العدد 1، (1979م).
- ويكيبيديا (الموسوعة الحرة) https://ar.wikipedia.org.

© جميع الحقوق محفوظة،عمادة البحث العلمي والابتكار/ جامعة الزيتونة الأردنية 2024